

ميلاد الألفاظ

الأستاذ شفيق جبيري

هل أبالغ في قولي إذا قلت لاتكاد تحضرنى عبارة أفصح بها عن عبقرية الجاحظ؟! ما أفصح الآفاق التي جال فيها، أي أفق لم يسجل فيه، أكان غريباً عن ميادين الفلسفة والعلم والأخلاق والعادات وما شا كل هذه الأبواب كلها؟! أمّا في الأدب فهو السماء التي لاتطاولها أسماء .

ولكنني أتخطئ في هذا المقال كل ما أشرت إليه وأحبس الفكر على أمرٍ واحدٍ وهو ميلاد الألفاظ، فقد نقل في كتاب البخلاء حديثاً عن طاهر الأسير حدثه به، قال: «ومما يدل على أن الروم أنجل الأمم أنك لاتجد للوجود في لغتهم اسماً، يقول: إنما سمى الناس ما يحتاجون إلى استعماله ومع الاستغناء يسقط التكليف» .

إنني أرى في هذه العبارة الوجيزة إشارة إلى ميلاد الألفاظ، قد يجوز أن الجاحظ لم يتوسع في هذا الباب توسع علماء اللغة في عصرنا، فلم يذكر كيف تولد الألفاظ، أي كيف تولد أسماء المسميات التي يحتاج إليها الناس، ولكن فطنته إلى أن الناس يسمون ما يحتاجون إليه تدل على فطنته إلى ميلاد الألفاظ، فلا تولد الألفاظ إلا إذا احتاج الناس إلى استعمالها، فما أكثر الأمور، وما أكثر الأفكار الحديثة التي تعرض لنا

في مجرى الحياة وتكون جزءاً من تفكيرنا العام ! ولكن كيف السبيل إلى الإفصاح عن هذه الأمور وهذه الأفكار ؟ لا ريب في أن اللغة تلجأ في هذا كله إلى ألفاظ حديثة ولكنها في أغلب الأحوال تكتفي بإطلاق لفظة قديمة على معنى حديث أو أمر جديد . وفي لغتنا العربية شواهد كثيرة على هذا الموضوع ، فالألفاظ الإسلامية مثلاً لم يكن لها قبل الإسلام المعنى الذي أطلقه عليها الإسلام ، ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد في هذا الباب ، فهذه الألفاظ معروفة وقد دل عليها علماء اللغة . وما يقال في الألفاظ الإسلامية يقال في ألفاظ كثير من العلوم كالنحو والفلسفة وعلم الاجتماع وعلوم الطبيعة وغيرها ، فاللغة العربية لما احتاجت إلى بعض المعاني الحديثة أطلقت ألفاظاً قديمة على هذه المعاني .

وتوليد الألفاظ التي تدل على المعاني الحديثة مذاهب بيّنها علماء لغة الأفرنجية يحتاج التبسط فيها إلى مقال غير هذا المقال ، فالألفاظ في اللغة عرضة في كل زمنٍ للميلاد والموت ، فقد تولد اللفظة إذا أطلقها الذهن على فكرة جديدة ، وتموت هذه اللفظة إذا لم يجد الذهن وراءها صورة أو فكرة ، وإذا كان في اللغة ألفاظ كثيرة لم تتغير معانيها من أول نشأتها فهي لا تزال تدل على كل الأفكار وعلى كل الأمور المجردة أو المحسوسة أو على كل كائنات العوالم الثلاثة : عالم الحيوان وعالم النبات وعالم المعادن ، أو على أنواع نشاط الإنسانية ، إلى آخر ذلك . إذا كان في اللغة ألفاظ كثيرة من هذا النمط حافظت على أوائل معانيها وعلى وحدة اللغة فإن عوامل كثيرة تعمل على تغيير معاني الألفاظ ، وتاريخنا لا يخلو من هذه العوامل من أوّل نشأته حتى يومنا هذا ، فقد تكون العوامل دينية أو أدبية أو سياسية أو علمية

أو اجتماعية إلى غير ذلك مما يكون له صلة بمحاضرتنا ، فالألفاظ إنما هي خدَم الأفكار ، فلولا الفكرة لم تكن اللفظة ، على أنها قد تكون ولكنها تظل محبوسة في الذهن فهي لا تدخل في اللغة .

إذا احتاجت لغتنا مثلاً إلى إحداث ألفاظ تدل على أفكار حديثة فإنها إما أن تلجأ إلى التعريب فتستعير من لغات أجنبية ما تحتاج إليه وإما أن تلجأ إلى الاشتقاق والنحت فتستخرج من لفظة موجودة ألفاظاً جديدة بصيغ مختلفة ، وفي بعض لغات الأفرنجية أنهم يلجؤون إلى زيادات يزيدونها في أوائل الألفاظ أو في أواخرها ، والتوسع في توضيح هذا كله يرجع إلى علماء اللغة .

إذا أحدثت اللغة معاني فإنها تجعل لألفاظٍ موجودة فيها وظائف كانت تجهلها هذه الألفاظ ، وليس في ذلك وجه من الضرر فإن اللغة تجعل من لفظة قديمة لفظة جديدة فتقتصد في الأصوات وتجعل للصيغة نفسها وظائف مختلفة ، وقد أفاض في هذا الموضوع علماء اللغة في عصرنا وفي مقدمتهم « دار مستتر » صاحب كتاب : حياة الألفاظ ، الذي شرح ميلاد الألفاظ وموتها ، ومحافظة اللغة وثورتها ، شرحاً لا مزيد عليه ، ومنه اقتبست بعض ما جاء في هذا المقال .

فاللغة في كل زمن عرضة لمذهين شديدين : مذهب المحافظة ومذهب الثورة ، فإلى جنب مذهب المحافظة الذي يحرص على وحدة اللغة يأتي مذهب الثورة الذي يغيّر اللغة ويلقي بها في مهابٍ جديدة من شأنها تغيير الألفاظ ، ولا ريب في أن الأسباب في هذه التغيرات والثورات كثيرة فإن حالة لغة أمة من الأمم متصلة بأفكار هذه الأمة ، فهذه الأفكار عرضة في كل عصرٍ للانتقال من حالٍ إلى حال ، ففي كل يوم فكر جديد أو اختراع جديد وكل ذلك يستلزم ألفاظاً جديدة ، فاللغة العربية مثلاً شهدت الإسلام الذي جاء بأفكار

جديدة استازمت ألقاظاً تدلّ عليها ، وشهدت علوماً جديدة ، ومذاهب جديدة ونحلاً جديدة ، وحروباً وغير ذلك ، فكل هذه الأمور قد أدت إلى إحداث ألقاظ أو إلى نقل معاني الألقاظ من معنى إلى معنى .

أما كيف تحدث هذه التغييرات كلها ، وما هي أسبابها النفسية والأدبية وكيف تدل الألقاظ الحديثة أو المعاني الحديثة في لغة من اللغات ، أما هذا كله فإنه يرجع إلى ميلاد الألقاظ .

شفيق جبري